أحد الأمراء بسيفه فأرداه ؛ فبرز من جوانب الخيمة آخرون من الباطنية الفدائية متنكرين فى زي الجند ، وحاول أحدهم أن ينقض على السلطان ، فتلقاه بعض البطانة وقتلوه ، واشتد الاضطراب والهرج ، وقتل فى هذه الواقعة عدة من الدعاة الاسماعيلية ؛ ونجا صلاح الدين من خناجرهم بأعجوبة ، وانهار مشروع شيخ الجبل وحلفائه مرة أخرى

وأدرك صلاح الدين ما يحيق به وبسلطانه من الخطر من غدر الاسماعيلية ومؤامراتهم ، فعول على مهاجمة قلاعهم وسحق نفوذهم ، فسار إليهم فى العام التالى (سنة ٥٧٢ هـ) ، وحاصر مصياب أمنع قلاعهم ، وفيها مركز زعامتهم ؛ فاستغاث سنان شيخ الجبل بصاحب حماة وهو خال السلطان ، ورجاه أن يشفع لديه فيهم ، وتعهد له بالتزام الجيدة والولاء نحو السلطان ، وهدده فى نفس الوقت إذا أبى هذه الشفاعة ، فخشى الأمير من وعيدهم ، وبذل وساطته لدى السلطان حتى أقنعه بالعفو عنهم ، فغادر قلاعهم بعد أن أخذ عليهم الوثائق والعهود ؛ ولزم الاسماعيلية وزعيمهم بعد ذلك خطة الولاء نحو السلطان إما خشية سطوته ، وإما لأنهم خشوا رجحان كفة الصليبيين إذا اختفى صلاح الدين من الميدان

ولبث الاسماعيلية من بعد شيخهم سنان زهاء قرن آخر ، يمتنعون بقلاعهم فى الشام ، وينتهزون فرص المعارك والأحداث المختلفة ليظهروا على مسرح الحوادث حيثما آنسوا الغنم ، وشغل بلاط القاهرة عنهم طوال هذه الحقبة بمكافحة الفرنج ورد الخطر الصليبي ؛ فلما كان عهد الظاهر بيبرس ، سارت حملة مصرية إلى الساحل فى سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) ، وحاصرت قلاع الاسماعيلية ، واقتحمت مصياب أمنع حصونهم ومقر زعامتهم وخربت قلاعهم ومزقت قواهم كل ممزق ؛ وبذلك انهار نفوذهم في الشام كما انهار فى فارس قبل ذلك بقليل واستحالت هذه الطائفة الإرهابية الخطرة بعد ذلك إلى شراذم لا أهمية لها سواء من الوجهة السياسية أو المذهبية ، وانتهى بذلك تاريخها الحافل بالجرائم والمؤامرات المدهشة

محمد عبد الله عنان

في ليلة رأس العام

أنا .. بين الطبيعة والله !

للأستاذ علي الطنطاوي

انصرف الطلاب إلى بنية النوم حين سمعوا الساعة الكبيرة تطنّ عشر طنات ، وخلت رَدْهة المكتبة ونشر عليها الصمت أجنحته السود ، فلم أكن ألمح فى خلاله إلا رنين طنّات الساعة وأصداء أصوات الطلاب الذين كانوا هنا منذ لحظة واحدة يتسامرون ويتحدثون ... ترنّ هذه الأصداء فى أذنى ، فإذا أنا أراها بعيني تتراقص بين طيات الصمت الأسود حتى تتحدر إلى أغواره العميقة ، ويشمل السكوت الرهيب بنية التدريس (فى كلية بيروت الشرعية) ويتمدّد فى أبهائها وغرفها وممرّاتها ...

فجلست أصغي إلى أناشيد الصمت التى كانت تسمع من حولى باستمرار فأجدها تملأ قلبي مرارة وأسى ...

ثم رفعت رأسي فجأةً إلى التقويم فنظرت فيه وجعل بصري عليه ... أمن الممكن هذا ؟ أيحدث هذا كله فى هدوء ... يموت فى هذه الليلة عام ويولد عام ، يمضي الراحل بذكرياتنا وآلامنا وآمالنا إلى حيث لا يعود أبداً ، ويقبل القادم فاتحاً ذراعيه ليأخذ قطعة من نفوسنا ، وقسماً من حياتنا ، ولا يعطينا بدلاً منها شيئاً ... وهل الحياة إلا أعوام فوق أعوام ؟ وهل النفوس إلا الذكريات واللذائذ والآلام ؟

وجلست بين المأتم والمولد أفكر وأتذكر وأحلم ... ولقد تعوّدت أن أجلس هذه الجلسة كلما تصرّم عام ، أصفّي حالي مع الحياة ، أنظر ماذا أخذت ، وماذا أعطيت ، وأراقب هذه القافلة من السنين التى بدأت مسيرها منذ ... منذ بدأ الزمان ، لست أدري متى بدأ الزمان ، والتى تنتهي حيث لا يدري أحد

تعوّدت أن أعطي نفسي من فكري ساعة فى العام ، أفكر فيها فى نفسي وفى الوجود ...

* * *

نظرت فلم أجد حولى إلا كتاب التفسير أحضر منه درسي

الذي سألقيه غداً ، وكتب البلاغة التي أكسر بها دماغي وأدمغة الطلاب في غير طائل ... فنحيتها كلها ووجدت ركام (الوظائف) التي يجب عليّ أن أنظر فيها وأصححها ، وأقرأ كل ماتفيض به هذه القرائح الفتية من سخف وهراء ، يدعوه أصحابه (إنشاء) ... فبعثرتها في غيظ وحنق ...

أنا في هذا البلاء منذ عشر سنين ، عشر سنين يالها من دهر طويل ! كان ربيع حياتي ، وزهرة شبابي ، أضعته كله في هذا العناء ، فماذا استفدت ؟ لا شيء إلا أن أحرقت نفسي كالشمعة لأضيء لهؤلاء الفتية طريقهم إلى المجد ، هؤلاء الذين أحببتهم وأخلصت لهم الحب ، وعشت بهم دهراً ولهم ، واعتصرت ماء شبابي لأنضر شبابهم ، ثم فرّق الزمان بيني وبينهم ، فلم أعرف مكانهم من الشام أو العراق ، ولم يعرفوا مكاني لأنهم لم يفكروا في أن يعرفوه ...

إذن فأنا أحترق كالشمعة ! يالحقيقة المرّة المروّعة ! يالشمعة شبابي التي ذوت وخبت وأوشكت أن تنطفئ !

إني أعيش في العدم ، أعيش في الماضي بالذكرى ، وفي المستقبل بالأمل ، مع أن الحاضر وحده هو الوجود ، لقد مضى الغد إلى حيث لا رجعة ولن يأتي المستقبل أبداً ...

أين هو هذا المستقبل ؟ ومتى الذي يستطيع أن يصل إليه ؟ لقد جلست في مثل هذه الليلة من العام الذي يموت الآن ، في شرفة منزلي بالأعظمية (بغداد) أحلم بالمستقبل بهذه الليلة التي كانت هي مستقبلي ، أسعى إليها ، وأؤمل أن أدركها ، فلما أدركتها صارت (حاضراً) ، وطفقت أسعى إلى مستقبل آخر . إنني كالثور يسعى ليدرك حزمة الحشيش التي يراها على شبر واحد منه فيهلكه السعي ، ولا ينالها أبداً ، لأنها معلقة بقرنيه تسعى أمامه !

يومض شعاع الأمل من بين فرج الغد ، فنسعى لندركه فلا نجده إلا سرابا . إن الأمل مصباح لا يضيء إلا من بعيد . أفليس من سخافات الفكر الانساني أن يضع في اللغة كلمة الأمل ولفظة المستقبل ؟ أليس وجودهما في المعاجم دليلاً على تأخر البشرية وانحطاطها ، وأنها لم تدرك بعد حقائق الحياة ؟

لقد كنت في (الأعظمية) غبياً جاهلاً ، لأني كنت مطمئناً متفائلاً . كنت كلما ودعت بالخيبة عاما ، انتظرت آمالي عند آخر ، ولكني صحوت الآن فلا آسف على ماض ، ولا أؤمل في مستقبل

لقد قدر عليّ ألا أشهد ولادة العام إلا غريباً عن موطني بعيداً عن أهلي تارة في مصر ، ومرة بالحجاز ، وحيناً في العراق . وهأنذا الآن غريب من جهتين : هذا السد الهائل من الجبال : جبال لبنان بيني وبين إخوتي في دمشق ؛ وهذا البحر الواسع بيني وبين أخي في باريز ؛ والدهر والأبدية بيني وبين آمالي ؛ والقبر بيني وبين والديّ ؛ وأنا بعد هذا كله غارق في كتب البلاغة ، (ووظائف) الانشاء ، نسيت مشروعاتي الأدبية التي رسمت خططها ، وأقمت أسسها ، وأهملت بحوثي ومطالعاتي ، وبعت ذكائي ومواهبي وشبابي برغيف من الخبز ...

هذا ما قدر عليّ ، وإني راض بما قدر !

* * *

اني أعيش الآن بلا غاية ، ولكنّ غايتي أن أعيش ، أن أثبت وجودي في هذه الدنيا ، كتلميذ كسلان ما جاء ليتعلم ، ولكن ليعدّ في التفقد موجوداً ، أو موظف خامل مقصر ...

فلماذا إذن أعيش ؟

ألأن لي حق الحياة ؟ فلماذا لا يكون لي إذن حق الموت ؟ ألا أملك أنا أمر نفسي ، ولكن من أنا ؟ ومن نفسي ؟ أأنا اثنان في واحد ؟ ...

إنني لا أستطيع التفكير في هذا ...

* * *

وملأ نفسي الشعور بالوحشة ، وأحسست في نفسي وفيما حولي فراغاً مخيفاً ، وشعرت كأن هذه الغرفة تتسع ثم تتسع ، حتى صار بين الجدران فضاء لا يدركه البصر !

ثم ضاق بي الفضاء — حتى كدت اختنق فيه ، فخرجت إلى الشارع ... وكان موهن من الليل ...

* * *

تركت ميدان البرج يضحك بالكهرباء ، ويرقص على ألحان الأشعة ، التي تنسكب على الميدان من ذرى البنى الرفيعة فتغمره بجو فاتن وتسيل على جوانبه ، وتنسج فوقه شبكة من الأشعة منسوجة من ملايين الخيوط الملونة بمئات الألوان ، وتركت الناس يحتفلون بعيد رأس السنة ، يتأملون معاني الوجود ، وفلسفة الخلود ،

وحقيقة الزمان فى هـذه المراقص الصاخبة ، الغارقة فى الخمر والعهر ...

وعمت شطر البحر أمشى فى الطرق المظلمة المنعزلة الخالية إلا من أعقاب السابلة ممن هو حليف البؤس أو الرذيلة فخلا الجو لفكرى فانطلق ...

قالت النفس : إن العالم يموت ، أفلا نودّعه بحسرة ... أو نسكب على جدثه عبرة ؟

فلم يعرف العقل ما هو الموت ولم يصدق بوجوده ...

قال العقل : ما هو الموت ؟ إن كان انتقالاً من حال إلى حال فليس موتاً ؛ وإن كان الموت عدماً فإن العدم ليس له وجود أبداً

قلت : ولكن أبى قد مات ؟

قال : لا ، إنه لم يمت ، إنك تذكره ويعيش حيًّا فى ذاكرتك ، وليس فى الذاكرة شىء ليس له وجود فى الواقع

قلت : وأين يوجد ؟

قال : لست أدرى ، هو فى ذاكرة الكون

قلت : إن العالم يموت الآن !

قال العقل : إن العام (٣٦٥) يوماً وبعض من اليوم هو ست ساعات و(٤٧) دقيقة ، وبعض منها هو (٣٣) ثانية ، وبعض الثانية فلنفرض هذا البعض (٢٠) ثالثة ، وبعض الرابعة فلنفرض هذا البعض (٢٥) خامسة وبعضاً ... وهكذا يمشى العقل حتى يصل إلى أصغر الأجزاء الزمنية ، ولكنه لا يزال يمشى لا ينتهى أبداً ... إن عام الهجرة مثلاً لا تزال له بقية فى الوجود ، أجزاء من الزمن بالغة فى الصغر حداً لا يدركه العقل ، ولكن تدركه الذاكرة ... إن هذه البقايا هى ذكريات الأعوام الماضية فى نفس العام الجديد !

قلت : إنى لم أفهم شيئاً !

وقفز عقلى فجأة من أجزاء الزمن الصغيرة إلى الزمان المطلق ، وراح يمشى على هـذا الخط الطويل يقطعه فى لحظة ، ولكنه لا يستطيع أن يبلغ طرفيه ، فلا يبى يحاول بلوغهما ولا ينقطع عن السؤال ... إلى أين ينتهى هذا الخط ؟ من أين يبدأ ؟ أليس له نهاية ؟ ما هى اللانهاية ؟

وذهب العقل يفكر : إن عمر عشر حشرات ساعة من عمرى ، وعمر عشرة رجال ساعة من عمر الصحراء ، وعمر الصحارى كلها ساعة من عمر الشمس ، فما هى الساعة إذن ؟ ما هو العام ؟ ما هى حقيقة الزمان ؟

وما هو المكان ؟ إنى لم أر مكاناً قط ، ولم أر إلا موجودات لا أعرف نهايتها ، ولا أدرك آخرها ، فكيف لى أن أرى مكاناً ليس فيه شى ؟ ما حقيقة المكان والزمان ؟ ما عمرهما ؟ ماذا وراءهما ؟

ألا أستطيع أن أعرف هذا العالم الهائل الذى تحجبه عن عينى هذه الطبيعة كما تحجب الكف الدنيا الواسعة وهى كف واحدة ...

وضجرت من هذه الفلسفة ، فانصرفت عن العقل وتركته يهذى وحده

وكنت قد بلغت البحر ، فوقفت فى حجر الطبيعة أتأمل وأناجى وأحلم ...

لقد نفضت يدى من الناس ولجأت إلى هذه الطبيعة السخية الوفيّة الوادعة الجميلة أجد عندها أنس نفسى وراحة قلبى ، أنظر إليها فتمحى هذه الابعاد والمسافات ، وتبدو لعينى لوحة فنية حافلة بالألوان التى لا يستطيع أبرع مصوّر أن يجمعها فى لوحة . ومن لعمرى يصوّر ألوان الغروب ، أو ألوان الزهر فى الروض أو يثبتها على لوحة بالألفاظ والأوزان أو بالأصبغة والألوان ؟ إن الطبيعة أبرع فى الألوان ، ولكن الفن البشرى أبرع فى الأصوات. إن الطبيعة ليست موسيقية فنانة ... عندها من الألوان ما لا نهاية له ولكن ليس عندها إلا هدير الموج ، وخرير النهر ، وحفيف الأشجار ، وتغريد البلابل ، وسجع الحمام ، وقصف الرعد ... هذه موسيقاها ، ومن هنا كانت الموسيقى أسمى الفنون لأنها ابتكار وتجديد ، على حين أن الأدب والتصوير تقليد ...

هذه الطبيعة التى أجد فى حماها الحب والعاطفة والجمال ، كلما لجأت إليها فراراً من الناس ، وضيقاً بالحياة ، وما ذهبت مرة إلى بسّيمة[1] وأطللت من (بيت طه) على هذا الوادى الصغير الذى يشبه همسة حلوة من همسات الحب ، أو بيتاً بارعاً من قصيدة الجمال ، إلا نسيت الدنيا كلها وأحسست أنى مع حبيب قد وضع رأسه على فخذى ، ونام ... هـذا الوادى الذى تجرى فيه العين

(١) قرية حلوة صغيرة مختبئة بين الجبال على القرب من العين الخضراء ، وهى اليوم مصطاف الشامين القريب ، ومتنزه الفاتن المليب

الخضراء لينة الأعطاف ، فاتنة المحاسن ، كأنها فتاة مدللة تخطر بحسنها وفتنتها على سفح الجبل ، تغمز بردى بعينها وتغريه بجمالها وهو يلحقها جرياً فى بطن الوادى ، متجدراً متكسراً كشاب قوى متين العود ، جهير الصوت ، قد اكتملت رجولته كما اكتملت أنوثتها ، وأشجار الحور (حور كواشف عن ساق) يرقصن فى عرس الفتاة المدللة والفتى القوى ، رقصة الحب ، يتمايلن على العروسين وقد تعانقا بعد قليل ، وضم الفتى عروسه حتى اختفت بين ذراعيه ، وطار بها إلى دمشق ، لتكون حلوتها فى الغوطة جنة الأرض ...

وهذه الجبال الحمراء ، تقوم على الباب ، تحرس الوادى أن يدخله واش أو عذول يفجأ العروسين العاشقين ، وتمنع الشمس الملتهبة أن تدنو منهما أو تعكر عليهما خلوتهما ، فيبقى الوادى جنة تجرى من تحتها الأنهار ، والدنيا من حوله فى جحيم الصيف ...

* * *

غبت فى تأملى وأنا على شاطئ البحر فلم ينبهنى إلا المطر يساقط على وجهى ويدىّ ، فنظرت فإذا السحب قد نسجت فى السماء ليلاً آخر ، وإذا المطر يهبط بشدة ، ثم يستحيل برداً طياشاً ؛ ثم تهب الريح وتجن الطبيعة جنونها ، فتنطلق تعول وتولول ، وتنتف شعرها ، وتحطم كل ما بلغته يدها ، فماجت نفسى واضطربت كهذا البحر الذى يزمجر ويلكم صخور الشاطئ حتى تكل سواعده ، فيستلقى على الرمال فلا تكون إلا لحظة حتى ينزل سوط الرياح على ظهره دراكا ، فيهب فزعاً مرتاعاً ، ويعود إلى ضرب الصخر فى غير ما طائل ، والريح تدير هذه المعركة كلها ، تقفز على رؤوس الجبال ، وتبعثر البرد يميناً وشمالاً ، وتنثر الرياح ثم تجمعها ثم تعبث بها ...

جنت الطبيعة جنونها ، ولكنى لم أخفها ولم تكبر فى عينى ، وإنما ازدريتها وأبغضتها ، ما هذه المخلوقة الضعيفة العاجزة التى لا يدرى بها أحد من سكان هذا الكون الواسع ؟ لقد رأيتها من قمة لبنان نقطة ، فكيف يراها المشترى ؟ وهل يعبأ نجم القطب بثورتها وجنونها ..؟

وانصرفت إلى نفسى أفكر آسفاً ...

إن العالم يتصرم وليس حولى صديق أطمئن إليه ، وأحل معه أعباء الوداع ، وأشاركه دمعة يذرفها منى على الفقيد الراحل ، وبسمة يمنحها هذا المولود الجديد ...

عرفت أن الصداقة ليس لها وجود ، فنفضت يدى منهم ولجأت إلى الطبيعة أتخذها صديق المخلص وأوليها حبى وقلبى فكانت هذه هى النتيجة . صادقت مجنونة طياشة بكاشة لا تعرف إلا التخريب والتدمير وتجهل ما هو الحق ، وما هو الشعور ؟

أهذا كل ما لى عندك يا صديقتى ؟ ألجأ إليك فى ساعة من أحرج ساعات حياتى قد تركت فيها أهلى وعفت صحبى لألقى بنفسى فى أحضانك ، وأخفى وجهى بين ثديك ، وأنشق عبيرك الطاهر ، وأغتسل بدموع محبتك وعطفك ، وأدفن آلامى فى صدرك ، فلا تلقينى إلا بهذا الجنون وهذا العويل ؟

كلا ، إنك لا تعرفين الحق ولا الشعور !

* * *

وأين لعمرى مكان الشعور من الطبيعة ؟

أنا أشعر بجمال الربيع ، ولكن هل يشعر الربيع بجمال نفسه ؟ لقد رأت الكونتس دى نواى فى الطبيعة مخلوقاً حياً ذا شعور وعانقت الربيع ، وجالست المساء ، ولكن ما ذا رأى الربيع فى الكونتس دى نواى ؟ هل يفرق الربيع بين الفتاة تقطف الزهرة لتقدمها بفمها إلى حبيبها ، والبقرة تقطف الورقة لتملأ بها معدتها

وأنت أيها الجبل ؟ كم رأيت من الفواجع التى تفتت الأكباد وتذيب القلوب ، فهل شعرت بشىء منها ؟ هل حزنت هل تألمت ؟

أشعرت بالأمس القريب يوم عصفت الأثرة برؤوس نفر من القواد ، فأطماوا بأفواههم شعلة السلام ، وملأوا العالم ظلاماً ثم نهضوا يبنون من الجماجم مجدهم فى التاريخ ، فلما امتلأت الأرض بالدم وتغطت بالجثث ، وغسلت بالدموع ، وتجللت بالآلام والأوجاع والثكل واليتم ، ولما كان الأمهات يبكين أبناءهن الذين ضاعت قبورهم كما ضاعت أسماؤهم ، والأطفال يهتفون : بابا . ينادون من ليس يجيب ... كان القواد العظماء يحتفلون بالظفر ... أشعرت بشىء من ذلك يا لبنان ؟ أشعرت بالأرامل والصبايا والأطفال يفتشون عن الخبز .. الخبز الأسود ، فلما لم يجدوه توسدوا رجلك ونظروا إليك صامتين . ثم ماتوا جائعين .. كما مات ألوف وألوف فى سبيل مجد القواد الظافرين !

ألان قلبك الذى قدّ من جلمد الصخر ؟ أذرفت يا لبنان من عيونك الصافية دمعة حنان ؟

وكم رأيت يا لبنان من متع الحب ؛ وكم أوى إليك العاشقون فاستظلوا بظلك ، وتعانقوا فى حجرك ، وشربوا خمر العيون ، وسكروا بنجوى الحب ، وتحدثوا بوسوسة القُبَل ، ونسوا الدنيا كلها والزمان والطبيعة ، ونسوا أنفسهم حين التقت الشفاه بالشفاه ، وأغمضت العيون لترى القلوب مفاتن هذا العالم المسحور وتستمتع بهذه الدنيا المعطرة الحلوة الفنية دنيا القبلة الكاملة

أهاج ذلك عاطفتك يا لبنان ؟ أحرك قلبك كل ذلك أيها الشاب التياه الذى يخطر بحلله الخضراء الزاهية ويتيه بعطره الخالد ؟

فأين هو مكان الشعور من الطبيعة ؟

أأنت أيها البحر الرقيق السيال أرهف شعوراً وأرق عاطفة ؟ أيحزنك منظر البؤس والشقاء ، وأنت تلتهم الأحياء ، وتخنق البشر ، وتفتح فاك لابتلاعهم ، أأنت ذو الشعور ؟ ...

أين هو الشعور ؟ وأين أجد العاطفة فى الطبيعة ؟ أأبتغيها فى البركان الهائل المحرق ، أم فى العاصفة العاتية المدمِّرة ؟

* * *

وأين هو الحق فى الطبيعة ؟

أنا أرى فى الطبيعة عاصفة تكسر الأغصان ، وتقلع الأشجار ؛ وأرى صاعقة تهدم الدور ؛ وأرى سيلاً يجرف المدن ، ويكتسح فى طريقه كل شىء ؛ وأرى البركان الثائر ؛ وأرى الرياح العاتية . كل هذا وجود مادّى للقوة ، فأين هو الوجود المادى للحق ؟

لقد اتضح الأمر ، وخسرت صديقتى الطبيعة الجامدة الظالمة الميّتة ...

فلمن ألجأ ؟

* * *

لمن ألجأ ويحك يا نفس ؟ هذا العام يوشك أن يموت !

فعجزت النفس ولم تجب ، وانطلق العقل يتفلسف ، قال : إن فى الطبيعة لحسًّا وتمييزاً ، ضع ذرة واحدة من الفحم ، وخمساً من الايدروجين يأخذ الفحم أربعاً ويدع الواحدة ، ومهما ضاعفت العدد تبق النسبة ثابتة ، أفليس هذا دليلا على أن الجماد يميز ؟

وضع الذهب بين عشرة معادن وألق عليه الزئبق فانه يعانق الذهب ويدع كل ما عداه ، أفليس فى هذا دليل على أن فى الجماد شعوراً وعاطفة ؟

ولكنى لم أنتبه لما قال العقل ؟

* * *

ونظرت إلى البحر فقلت : ما البحر ؟ ما الطبيعة ؟ أنا لا أرى إلا هذا العالم المادى ؛ ولكن ماذا وراء المادة من عوالم ؟ إن الروح أول محطة فى طريق هذه العوالم ، فهل استطعنا أن نبلغها ؟ إن العقل البشرى يمشى إليها منذ بدأ صناعة التفكير ، ولا يزال فى الطريق لم تبن له معالمها ... إنه تعب وملّ ويئس ... افتح الآن أى كتاب من كتب (علم النفس) إنك لا ترى فى فهرسه اسم الروح ولا النفس ...

وفكرت فى العام الراحل فقلت : ما هو العام ؟ ما وجوده ؟ ما حقيقته ؟ ولم أسمع جواباً فأغمضت عينىّ كما أغمضت قبة الأعظمية عينيها منذ عام ، ولكنى لم أحلم ولم أتذكر ، وإنما لبثت صامتاً محدقاً فى غير شىء كالأبله أو المشدوه ، وتركت عقلى المغرور يتيه وحده فى قضاء اللانهاية ... إنه لا يستطيع أن يعرف شيئاً مما وراء المادة ... كما أن عقل الجنين لا يقدر أن يعلم شيئاً عن هذا العالم ولا يؤمن بوجوده ...

وكنت قد نسيت الطبيعة الجامدة الميتة التى لا شعور فيها ولا عاطفة ، ونسيت هذه المخلوقات التافهة الحقيرة التى يدعونها (الناس) ، ونسيت هذه الذرة التائهة فى رياح الوجود التى اسمها (أنا) ، وتوجهت إلى العظيم الباقى الذى هو وحده الخير المطلق والحق والجمال .. توجهت إلى الله أسأله أن يلبس هذا العام القادم ثوب السعادة ، ويضفى على العام الراحل حلة الغفران . اللهم آمين

« بيروت » على الطنطاوى